

سلسلة دروس وعبر من هجرة سيد البشر ﷺ

الدرس الخامس عشر والأخير: الفداء والتضحية

لقد برزت في هجرة الرسول ﷺ وأصحابه الكرام نماذج من التضحية لا مثيل لها في التاريخ.

فالهجرة بحد ذاتها، نوع من أرقى أنواع التضحية، لا يعرفها إلا من ذاقها، ولا يستشعرها إلا من مارسها .

فهذا رسولُ الله ﷺ والذي ضرب أروع الأمثلة في الفداء والتضحية، يضطرُّ إلى مغادرة بلده الذي وُلد فيه وترعرع، وترك أقرباءه وعشيرته، فقال وهو يغادرها بنبرة من الحزن: ((والله إنك لحَيْرُ أرضِ الله، وأحبُّ أرضِ الله إلى الله، ولولا أني أُخْرِجْتُ منك ما خرجتُ))؛ ” الترمذي”.

فقد أتى جبريلُ عليه السَّلَامُ رسولَ الله ﷺ فَقَالَ: لَا تَبْتَ هَذِهِ اللَّيْلَةَ عَلَى فِرَاشِكَ الَّذِي كُنْتَ تَبِيتُ عَلَيْهِ، قَالَ: فَلَمَّا كَانَتْ عَتَمَةٌ مِنَ اللَّيْلِ اجْتَمَعُوا عَلَى بَابِهِ يَرِصُدُونَهُ مَتَى يَنَامُ، فَيَثْبُونُ عَلَيْهِ؟ فَلَمَّا رَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَكَائِهِمْ، قَالَ لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ: تَمَّ عَلَى فِرَاشِي وَتَسَجَّ بِرُؤْيِي هَذَا الْحَضْرَمِي الْأَخْضَرِ، فَنَمَ فِيهِ، فَإِنَّهُ لَنْ يَخْلُصَ إِلَيْكَ شَيْءٌ تَكَرَّهُهُ مِنْهُمْ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَنَامُ فِي بُرْدِهِ ذَلِكَ إِذَا نَامَ.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَحَدَّثَنِي يَزِيدُ بْنُ زِيَادٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبِ الْقُرْظِيِّ قَالَ: لَمَّا اجْتَمَعُوا لَهُ، وَفِيهِمْ أَبُو جَهْلٍ بْنُ هِشَامٍ، فَقَالَ وَهُمْ عَلَى بَابِهِ: إِنَّ مُحَمَّدًا يَزْعُمُ أَنَّكُمْ إِنْ تَابَعْتُمُوهُ عَلَى أَمْرِهِ، كُنْتُمْ مَلُوكَ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ، ثُمَّ بُعِثْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ، فَجُعِلَتْ لَكُمْ جِنَانٌ كَجِنَانِ الْأُرْدُنِّ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا كَانَ لَهُ فِيكُمْ ذَبْحٌ، ثُمَّ بُعِثْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ، ثُمَّ جُعِلَتْ لَكُمْ نَارٌ تُحْرَقُونَ فِيهَا. قَالَ: وَخَرَجَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَخَذَ حَفْنَةً مِنْ تُرَابٍ فِي يَدِهِ، ثُمَّ قَالَ: أَنَا أَقُولُ ذَلِكَ، أَنْتَ أَحَدُهُمْ. وَأَخَذَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى أَبْصَارِهِمْ عَنَّهُ، فَلَا يَرَوْنَهُ، فَجَعَلَ يَنْثُرُ ذَلِكَ التُّرَابَ عَلَى رِءُوسِهِمْ وَهُوَ يَتْلُو هَؤُلَاءِ الْآيَاتِ مِنْ يَس: {يَس، وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ، إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ، عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ} إِلَى قَوْلِهِ: {فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ} [يس: 9] حَتَّى فَرَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ هَؤُلَاءِ الْآيَاتِ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ رَجُلٌ إِلَّا قَدْ وَضَعَ عَلَى رَأْسِهِ تُرَابًا، ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَى حَيْثُ أَرَادَ أَنْ يَذْهَبَ، فَأَتَاهُمْ آتٍ مِمَّنْ لَمْ يَكُنْ مَعَهُمْ، فَقَالَ: مَا تَنْتَظِرُونَ هَهُنَا؟ قَالُوا: مُحَمَّدًا. قَالَ: حَيْبُكُمْ اللَّهُ! قَدْ وَاللَّهِ خَرَجَ عَلَيْكُمْ مُحَمَّدٌ، ثُمَّ مَا تَرَكَ مِنْكُمْ رَجُلًا إِلَّا وَقَدْ وَضَعَ عَلَى رَأْسِهِ تُرَابًا، وَانْطَلَقَ لِحَاجَتِهِ، أَفَمَا تَرَوْنَ مَا بِكُمْ؟ قَالَ: فَوَضَعَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ يَدَهُ عَلَى رَأْسِهِ، فَإِذَا عَلَيْهِ تُرَابٌ ثُمَّ جَعَلُوا يَنْتَظِرُونَ فَيَرُونَ عَلِيًّا عَلَى الْفِرَاشِ مُتَسَجِّيًا بِرُؤْيِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَيَقُولُونَ: وَاللَّهِ إِنَّ هَذَا لِحَمْدِ نَائِمٍ عَلَيْهِ بُرْدُهُ. فَلَمْ يَبْرُحُوا كَذَلِكَ حَتَّى أَصْبَحُوا فَقَامَ عَلِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ الْفِرَاشِ فَقَالُوا: وَاللَّهِ لَقَدْ كَانَ صَدَقْنَا الَّذِي حَدَّثَنَا. (سيرة ابن هشام).

ومن نماذج التضحية في الهجرة التضحية بالمال، ويتجلى ذلك فيما فعله الصديق رضي الله عنه حين أخذ ماله كله ولم يترك لآل بيته منه شيئاً، قالت أسماء بنت الصديق رضي الله عنها: "لما خرج رسول الله ﷺ، وخرج أبو بكر معه،

احتمل أبو بكر ماله كله، وكان خمسة آلاف أو ستة آلاف درهم، فانطلق به معه. قالت: فدخل علينا جدي أبو قحافة، وقد ذهب بصره، فقال: والله إني لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه! قالت: قلت: كلا يا أبت! إنه قد ترك لنا خيراً كثيراً، قالت: فأخذت أحجاراً، فوضعتها في كوة في البيت، التي كان أبي يضع أمواله فيها، ثم وضعت عليها ثوباً، ثم أخذت بيده، فقلت: يا أبت، ضع يدك على هذا المال! قالت: فوضع يده عليه، فقال: لا بأس، إذا ترك لكم هذا فقد أحسن وفي هذا بلاغ لكم! ولا والله ما ترك لنا أي شيئاً، ولكنني أردت أن أسكن الشيخ.

وهذا صهيب الرومي يضحى بماله كله في سبيل الله تعالى. قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَذَكَرَ لِي عَنْ أَبِي عُمَانَ النَّهْدِيِّ، أَنَّهُ قَالَ: بَلَغَنِي أَنَّ صُهَيْبًا حِينَ أَرَادَ الْهَجْرَةَ قَالَ لَهُ كُفَّارُ فُرَيْشٍ: أَتَيْتَنَا صُغْلُوكًا حَقِيرًا، فَكَثُرَ مَالُكَ عِنْدَنَا، وَبَلَغَتْ الَّذِي بَلَغَتْ، ثُمَّ تُرِيدُ أَنْ تَخْرُجَ بِمَالِكَ وَنَفْسِكَ، وَاللَّهِ لَا يَكُونُ ذَلِكَ، فَقَالَ لَهُمْ صُهَيْبٌ: أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلْتُ لَكُمْ مَالِي أَتُخْلُونَ سَبِيلِي؟ قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: فَإِنِّي جَعَلْتُ لَكُمْ مَالِي. قَالَ: فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: رِيحَ صُهَيْبٍ، رِيحَ صُهَيْبٍ.

وهذه أم سلمة رضي الله عنها أوذيت هي وزوجها وابنها إيذاءً شديداً في الهجرة. فعن أم سلمة، رَوَى النَّبِيُّ ﷺ، قَالَتْ: لَمَّا أَجْمَعَ أَبُو سَلَمَةَ الْخُرُوجَ إِلَى الْمَدِينَةِ رَحَلَ لِي بِعِيرِهِ ثُمَّ حَمَلَنِي عَلَيْهِ، وَحَمَلَ مَعِيَ ابْنِي سَلَمَةَ بِنَ أَبِي سَلَمَةَ فِي حِجْرِي، ثُمَّ خَرَجَ بِي يَقُودُ بِي بِعِيرِهِ، فَلَمَّا رَأَتْهُ رِجَالُ بَنِي الْمُغِيرَةِ بَنِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ مَخْرُومٍ قَامُوا إِلَيْهِ، فَقَالُوا هَذِهِ نَفْسُكَ غَلَبَتْنا عَلَيْهَا، أَرَأَيْتِ صَاحِبَتَكَ هَذِهِ؟ عَلَامَ نَتْرُكَ تَسِيرُهَا فِي الْبِلَادِ؟ قَالَتْ: فَتَزَعُوا خِطَامَ الْبَعِيرِ مِنْ يَدِهِ، فَأَخَذُونِي مِنْهُ. قَالَتْ: وَعَظِيبَ عِنْدَ ذَلِكَ بَنُو عَبْدِ الْأَسَدِ، رَهَطُ أَبِي سَلَمَةَ، فَقَالُوا: لَا وَاللَّهِ، لَا نَتْرُكُ ابْنَنَا عِنْدَهَا إِذْ نَزَعْتُمُوهَا مِنْ صَاحِبِنَا. قَالَتْ: فَتَجَادَبُوا بَنِي سَلَمَةَ بَيْنَهُمْ حَتَّى خَلَعُوا يَدَهُ، وَأَنْطَلَقَ بِهِ بَنُو عَبْدِ الْأَسَدِ، وَحَبَسَنِي بَنُو الْمُغِيرَةِ عِنْدَهُمْ، وَأَنْطَلَقَ زَوْجِي أَبُو سَلَمَةَ إِلَى الْمَدِينَةِ. قَالَتْ: فَفَرَّقَ بَيْنِي وَبَيْنَ زَوْجِي وَبَيْنَ ابْنِي. قَالَتْ: فَكُنْتُ أُخْرِجُ كُلَّ غَدَاةٍ فَأَجْلِسُ بِالْأَبْطَحِ، فَمَا أَزَالُ أَبْكِي، حَتَّى أَمْسَى سَنَةً أَوْ قَرِيبًا مِنْهَا حَتَّى مَرَّ بِي رَجُلٌ مِنْ بَنِي عَمِّي، أَحَدُ بَنِي الْمُغِيرَةِ، فَرَأَى مَا بِي فَرَحَمَنِي فَقَالَ لِبَنِي الْمُغِيرَةِ: أَلَا تُخْرِجُونَ هَذِهِ الْمَسْكِينَةَ، فَرَفَقْتُمْ بَيْنَهَا وَبَيْنَ زَوْجِهَا وَبَيْنَ وَلَدِهَا! قَالَتْ: فَقَالُوا لِي: الْحَقِي بِزَوْجِكَ إِنْ شِئْتَ. قَالَتْ: وَرَدَّ بَنُو عَبْدِ الْأَسَدِ إِلَيَّ عِنْدَ ذَلِكَ ابْنِي. قَالَتْ: فَارْتَحَلْتُ بِعِيرِي ثُمَّ أَخَذْتُ ابْنِي فَوَضَعْتُهُ فِي حِجْرِي، ثُمَّ خَرَجْتُ أُرِيدُ زَوْجِي بِالْمَدِينَةِ. (سيرة ابن هشام)

وفي الجملة فإن المهاجرين بصفة عامة قد تركوا الوطن والبيت والمال، وقد قال الله فيهم: {لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۗ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ} (الحشر: 8).

تلکم أیها الأحبة الكرام مشاهد قليلة من ملحمة الحب والتضحية التي سطرها أسلافنا الكرام من الصحابة الأخيار حين دعاهم رسول الله ﷺ إلى الهجرة.. ما تهاونوا وما تراخوا في تلبية النداء، وما بخلوا بأنفسهم ولا

بأموالهم في سبيل نصره نبيهم، وما كبلتهم عواطفهم نحو أهليهم وأبنائهم وبلدانهم، ولا حالت بينهم وبين الانطلاق إلى طيبة المباركة. فهلا سرنا على خطى هؤلاء الأحبة، وهلا تحررنا من قيود الدنيا وفتنها لننطلق بصدق وثبات منتصرين لهذا الدين، عاملين على استعادة المجد والتمكين.

إن للتضحيات دوراً كبيراً في بناء الأمم ونهضتها والحصول على حريتها. ما أكثر من يموت لكن شتان بين من يموت على فراشه أو في سبيل شهواته وبين من يموت في سبيل دينه وعقيدته وحرية دفاعاً عن وطنه، هذه هي التضحية التي نريدها بذل النفس والمال والوقت والحياة وكل شيء في سبيل الغاية، وليس في الدنيا جهاد لا تضحية معه.

نسال الله أن يجعلنا من أهل الفداء والتضحية، وأن يحفظ مصرنا من كل مكروه وسوء .

كتبه : خادم الدعوة الإسلامية

د / خالد بدير بدوي